تاريخ آل معن

مرَّ بي حينٌ من الدهر وانا ارى نتفاً مبعثرة من تاريخ آل معن يكاد لا يتألف منها في الذهن صورة ما كانوا عليهِ من الامارة والعزة اللهمَّ الاَّ ما قرأت عنهم في اخبار الاعيان في جبل لبنان فجمعتُ ما اتصلت اليهِ يدي من التواريخ واسعفت لقصوري عن الوصول الى ما تكنّ الخزائن في بلادنا من نفائس المؤلفات

فآل معن ينتسبون الى بني ربيعة الفرس بن نذار ومما قيل فيهم ان جدهم ايوب من سلالة الايوبيين ملوك بغداد وثغورها وانهُ كان فارساً مغواراً يشدّ ازرهُ باجد عشر ابناً من الشجعان فعظم شأنهُ حتى حسدهُ قومهُ فتألبوا عليهِ واخرجوهُ من بينهم فرحل بعيالهِ وما يملكون ونزلوا ضفاف الفرات واتّسموا هنالك بالايوبيين نسبة لابيهم الباسل وكرَّ عليهم الزمن لايزيدهم الاَّ نموّاً وكثرة حتى ضاقت عليهم منازلهم فرحلوا الى الديار الحلبية وفيهم اميرهم ربيعة واقاموا ثمة حتى مات فخلفهُ على الزعامة ابنهُ الامير معن الذي صاهر الملك النعمان

وكان قبيلهُ قد صار الى المنعة والعزة وسوريا يومئذٍ غشيتها جموع الافرنج المعروفين بالصليبيين فدان لحكمهم بعض ارجائها وناهضهم الكثير من امراء البلاد واعيانها يغيرون على ما بايديهم من الاقطار فتارة يظفرون واونة يرجعون خائبين

وفي خلال هذا كان اهل حلب قد قتلوا لؤلؤا الخادم اتابك[1] ابناء الملك رضوان ووقع على اثر ذلك كثير من الخلل في البلد فاستقدموا نجم الدين ايلغازي من امراء التركمان ليملكوهُ عليهم فيذود عنهم ويحميهم من غارات الافرنج الذين كانوا قد استحلوا في انطاكية وجوارها فجاءهم واقام يسدّد امورهم واذا بظهير الدين ابي منصور طغتكين[2] اتابك صاحب دمشق قد جاءهُ زائراً مستنفراً لقتال الفرنجة فتواعدا على النجدة وجاءتهما الاخبار بان الاعداء متحزون لدمشق وحوران وانهم شرعوا يعيثون فساداً في البلاد فاتفق الاميران

(١) اتابك كلمة مركبة من اتا بمعنى اب و بك من القاب التعظيم المعروفة وكان لقب اتابك يمنح لمن يسلمهُ السلطان تربية اولادهِ و يدبر البلد الذي يتخذهُ ابن السلطان عادةً ثم اصبح هذا اللقب بكرور الايام حلية لاعاظم الموظفين ومنهم امير الجيوش (ابن خلكان)

(٢) كان طغتكين اتابك تتش بن الب ارسلان صاحب دمشق فلما توفي تتش سنة ٤٩٧ هجرية قام بالملك بعدهُ طغتكين المذكور لانهُ كان قد تزوج بامهِ في حياتهِ وحياة ابيهِ وظلَّ طغتكين مالكاً في دمشق الى ان توفي سنة ٥٢٢ هجرية فبقي الملك في عقبهِ حتى سنة ٥٤٩ هجرية حين ملكها نور الدين صاحب حلب

طغتكين وايلغازي على ان يعود طغتكين الى دمشق ويقيم فيها مثاغراً للعدو وان يذهب ايلغازي الى ماردين فيجيء منها بالمال والرجال

فان كان بنو ربيعة يومئذٍ نازلين على الفرات فقد اجابوا داعية ايلغازي وحملوا معهُ في جملة العشرين الفاً الذين زحف بهم لمنازلة انطاكية فباغتوا رجالها وغلبوهم وقتلوا منهم روجر الوصيّ على الامارة ولكنهم قبل ان سرَّهم الظفر احاط بهم جيش العدو تحت قيادة ملكهم بودوين الثاني فنتك بهم ذريعاً واضطرهم الى الفرار. وان صحت رواية الكولونل تشرشل في تاريخ جبل لبنان (جزء ١ صفحة ٢٢٢ و٢٣٦) فان بني ربيعة وبني تنوخ كانوا في جملة القبائل العربية التي نزلت جبل العلا عند معرة النعمان وان التنوخيين انفصلوا عنهم في القرن التاسع وقصدوا لبنان واقاموا ثمة فافلحوا اما بنو ربيعة فظلوا في المعرة حتى جاء الصليبيون وامتلكوا انطاكية ورسخت قدمهم فجاء ايلغازي بجموع الترك وانضموا لبني ربيعة فحاربوا الافرنج في الجبل الاسود حتى رأوا ان لا قبل لهم بهم فالتجأوا الى المعرة ثم سلموها وارتحلوا عنها واميرها يومئذٍ الامير معن فاضطر ان يخرج من جوار الافرنج فاتى البقاع ومنهُ قصد دمشق فاجتمع بصاحبها واستشارهُ فاشار عليهِ بالنزول في لبنان فوق بيروت وصيداء فارتضى الامير معن لما في ذلك من الخير لهُ ونزل في بعقلين وجوارها

وقد شهد طغتكين ورجالهُ حرب انطاكية ونتيجتها فلما عاد الى بلادهِ وقد وقر في نفسهِ مرابطة الثغور صيانة لهُ من غارات الافرنج الذين لم يفتروا عن شن الغارات على صيداء وصور والشقيف وما بينها حتى امتلكوا بعض المعاقل واوشكوا يفوزون بالبلدين صيداء وصور غير مرة لو لم يؤدِّ اهلوها المال فداء

ولكن الفداء لا يغني عن القوة فتيلاً فان بعثة تروجية نزلت بافامية سنة ١١١٠ وزحفت منها لافتتاح صيداء تحت امرة بودوين فملكتها فتم للافرنج بذلك رسوخ القدم في الثغور والتفرغ للاغارة على ما وراءها

يومئذٍ استغاث طغتكين بصاحبهِ ايلغازي ليتعاونا على خضد شوكة الفائزين فلما انكسرا عند انطاكية رأى ان يتحصن بالرجال الاشداء فاوعز الى بني ربيعة او الى فئة منهم ان يرحلوا الى تخوم بلادهِ فلباهُ القوم فاتخذ لهم قطر الشوف مقاماً يستشرفون منهُ على البحر ويكونون عوناً على الاعداء

ومما آثر ابن الاثير في الكامل ان في سنة ٥١٣ هـ سار جوسلين صاحب تل باشر في جمع من الافرنج نحو مئتي فارس من طبرية وكبس طائفة من طيء يعرفون ببني خالد فاخذهم وغنم

منهم كثيرًا وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة فاخبروهُ انهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبرية فارصد جوسلين للحوق بهم مئة وخمسين فارسًا وسار بخمسين في طريق اخرى ولكنهُ ضلَّ الطريق ولحق فرسانهُ بالقوم فوقع القتال واظهر الامير الشجاعة الباهرة والتدبير الحسن فقُتل من الافرنج سبعون وأُسر اثنا عشر زعيمًا

وقد ذكر ابو الفداء هذه الرواية وقال ان اسم الامير مرّ بن ربيعة

على ان ليس في هذه الرواية تصريح ببني معن ولكنَّ من امعن النظر يرى ان كلا القومين من بني ربيعة وان الحادثة واقعة سنة ٥١٣ هـ التي تعادل سنة ١١١٩ او سنة ١١٢٠ مسيحية وهي السنة التي ورد ان آل معن كانوا نازلين فيها في البقاع فليس بعيدًا ان تكون الرواية عنهم والله اعلم

ولقد اصاب طغتكين في مثاغرة الفرنجة من صوب الشوف لحصانة الموقع ووقوعهِ في سبيل القوم وقيام المرابطين فيهِ على اجهاد قوى العدو وايقافهِ منهم موقف الخائف الحذر فهم يقدرون على الاغارة على ما امتلك الفرنج من بلاد صيدا وصور وما اليهما ولا يستطيع اولئك اقتحام بلادهم لصعوبة مسالكها ووعورة جبالها

وكان قطر الشوف حتى يومئذٍ قفرًا يبابًا فلم يسرع طغتكين الى انزال الايوبيين فيهِ لامتلاكهِ الافرنج واصبح بين ايديهم عصمًا ومعقلاً ايًا الاَّ ان سداد رأي الامير صانهُ منهم وانزل الايوبيين فيهِ منزلاً رحبًا فارتاحت اليهِ خواطرهم وسكنوا اليهِ بديلاً من المضارب والخيام لانهم كانوا حتى يومئذٍ من الرحَّل الذين يضربون في البراري والقفار ليصيبوا منتجعًا ومرعًى خصيبًا فلما وضعوا عصا الترحال ادرَّ الامير طغتكين عليهم المال تطييبًا لخواطرهم ورأوا من اهل الجوار انسًا وترحابًا فطابت نفوسهم سيما وان الامير بحتر التنوخي صاحب بلاد الغرب بعث يتودَّد اليهم ويعاقدهم الولاء ليشد بهم ازرهُ في مقاتلة الفرنجة على ما يملكون وحبب اليهم ابتناء البيوت فارتضى الامير معن بذلك فارسل الامير بحتر اليهِ البنائين والعملة فبنوا كثيرًا من الدور فتمصَّرت بلاد الشوف منذ حينئذٍ وتوارد اليها الجالية من الاقطار التي غلب الافرنج عليها فعمرت بهم وازدهرت . ولا نعلم كيف ظلوا حتى يومئذٍ على بداوتهم مع انهُ ورد انهم قضوا في المعرة وجوارها السنين الطوال. وقيل ان الامير معنًا قصد انساءهُ آل تنوخ في عبية فاشاروا عليهِ بسكنى الشوف . ذكر ذلك صديقي العالم المحقق الامير شكيب ارسلان في دائرة المعارف وزاد عليهِ ان اسم الشوف مشتق من شُف اي انظر اذ قالها التنوخي لصاحبهِ المعني حين اطلَّ على بلاد الشوف

ومرّت السنون ومقام المعنيين في الشوف عزيز لبسالتهم واعتصامهم فيه وإباءة نفوس قومهم عن الخضوع لغير زعمائهم ولانهم كانوا قد مالأوا آل شهاب حين جاءوا سنة ١١٦١ من حوران فغلبوا الفرنج على حاصبيا وملكوها فنشأت منذ يومئذٍ صداقة محكمة العرى بين الاسرتين ادّت بعد حين الى المصاهرة فالاتحاد والمشاركة في القتال ضد الصليبيين

وليس في تاريخ هذه الاونة شيء من الانباء عن شؤون المعنيين الداخلية ولكن المستفاد من مؤدّى روايات بضعة من كبار مؤرخي الفرنجة[1] الباحثين في احوال الدروز ان القوم كانوا في باديء امرهم انخاذاً يخضعون لمشائخهم والكل يدينون للامير ويقولون بقوله وهو ينظر في شؤونهم بالنصفة والعدل حتى اذا قضت الاحوال لاستنفارهم الى القتال لبوا نداءه. ومما ذُكر عنهم استقلالهم في جبالهم بحيث لم يخضعوا للسلطة الاجنبية عنهم الاّ ظاهراً لتبقى السيادة فيهم محصورة في امرائهم وهذا سر بقائهم على عزتهم مدى عصورهم الاولى في سوريا والاّ بعثرتهم وهم فئة قليلة عوامل الدسائس ولعبت بهم السياسة ادواراً فحطت بهم من عصمتهم. ألا ترى انهم ظلوا على عزتهم بين كانت البلدان الكثيرة السكان كدمشق وحلب وغيرهما لا تقوى على حفظ كيانها بل تتوالى عليها تقلبات السياسة واطوار الدول

فجب الاستقلال — ومخالفة مذهب السنة لمذهبهم الدرزي الذي دانوا به بعد نزولهم في الشوف شدّ اواخي الاخاء فيما بين افرادهم فصاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهُ بعضاً ومن تمام حظهم لقوا من مجاوريهم النصارى مثل ما كان في نفوسهم الابيّة من المباديء فاتحدوا وناوأوا من خالفهم طويلاً

وكأن سياسة امرائهم ظلّت مدى زمانهم متجهةً صوب حفظ استقلالهم ورسوخ قدمهم في العزة والمنعة على انهم يحفظون الولاء لاصحابهم ويجدون المستغيث بهم ولا يحجمون عن الثأر ممن يسيء اليهم الاّ ان استقلالهم الداخلي لم يخرجهم عن الاذعان لمقاصد ملوك الجوار في اعدائهم فمن ذلك انهُ لما قدمت سنة ٥٩٣ هـ (سنة ١١٩٧) تجريدة صليبية تحت امرة الاسقف كونراد وكان على سلطنة دمشق الملك العادل بن ايوب اخو السلطان صلاح الدين المشهور تحفّز هذا الملك الباسل لملاقاة الغزاة واستغاث بابن اخيه الملك العزيز صاحب مصر وبغيره من ملوك الجوار وزحف على يافا فخرج الافرنج من عكاء للذود عنها ولكنهم قبل ان يلغوها علموا ان الملك العادل فتحها بالسيف فاتجهوا صوب بيروت ليأخذوها وفيما هم سائرون

(1) Volney, Etat politique de la Syrie, chap. III § III et § IV.
New American Cyclopaedia (New York, 1863) Vol. VI, page 632.

لقيهم في الطريق امراء معن وتنوخ وحاربوهم وذلك لان الملك العادل كان قد اوعز اليهم ان يسكوا الطريق على الغزاة وان يعزلوا قلاع بيروت لانها لا تقوى على المانعة فخالفهُ الامير جمال الدين التنوخي وابقى القلعة مسلحةً وزاد في حاميتها ووقف مع المعنيين في سبيل الافرنج وحاربوهم ولكنهم لم يقووا على غلبهم لكثرة جموعهم فزحف الصليبيون بعد ظفرهم على بيروت واخذوها من غير ممانعة. هذي زبدة ما رواهُ الكولونل تشرشل في تاريخ جبل لبنان ولا نعرف المورد الذي استقى منهُ وانما علمنا من ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٩٣ ﻫ ان الملك العادل بعث سريةً من عسكرهِ لتخريب بيروت ففعلوا ولكن منعهم اميرها من ذلك وتكفّل بحفظ القلعة فعاد عكسر المسلمين ولقوا الافرنج عند صيداء وجرت بينهم مناوشة حتى فصلهم الليل. ولم يذكر ابن الاثير شيئاً عن المعنيين وكذلك لم يذكرهم صاحب كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين. وقد غلط تشرشل بك في ايراد اسم الامير المتولي على بيروت اذ سماهُ جمال الدين مع ان اسمهُ عز الدين سامة او اسامة كما ذكرهُ ابن الاثير وصاحب الروضتين وصالح بن يحيى في تاريخ بيروت وكما دلَّ عليهِ بيتان من الشعر قيلا فيهِ لتسليمهِ بيروت من غير قتال. وكأن تشرشل لم يكن يحفل بضبط الاسماء كثيرًا اذ غلط ايضاً في اسم الملك الذي حمل بني معن على سكنى الشوف فقال هو نور الدين مع انهُ طغتكين

وفي سنة ٦٣٨ ﻫ خاف الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن اخيهِ الملك الصالح ايوب فسلم الافرنج صفد والشقيف ليكونوا معهُ و يعضدوهُ على ما قال ابو الفداء وحالف صاحب حمص وصاحبة حلب على مناوأة الصالح ايوب وصاحب الكرك وعاد فسلَّم للافرنج القدس وعسقلان وطبرية استجلاباً لرضائهم واستدعى الخوارزمية لنجدتهِ اما الصالح ايوب فخاف المنية وكتب على ما في اخبار الاعيان الى محمد نجم الدين التنوخي يستحثهُ على البقاء على الطاعة وان يتقدم برجالهِ لاستقبالهِ. قال تشرشل بك ان الامير نجم الدين لم يكن ليقوى على الاجهار بنواياهُ لقرب اسماعيل منهُ وكثرة انصارهِ ولذلك انضم الى جيشهِ ومعهُ بنو معن والتقى الجمعان عند عسقلان فلوى التنوخيون والمعنيون اعنة خيولهم وانحازوا الى الصالح ايوب فوقعت الكسرة على الصالح اسمعيل وحلفائهِ ثم التقوا ثانية عند غزة سنة ٦٤٢ فانكسر الصالح اسمعيل وفي السنة الثانية اخذ المعنيون صيداء من الافرنج على ما قال تشرشل وظلَّت في ايديهم او تحت ولايتهم حتى تشكلت ولايةً في اخريات ايامهم

ولقد حفظ التاريخ لآل معن وقائع جمة تدل على ما ذكرنا من خلالهم وانهم كانوا يوالون الشهابيين في السراء والضراء فمن ذلك ما رواهُ صاحب اخبار الاعيان ان في سنة ١٢٨٧

لما تملك المغول وادي التيم بالسيف وهرب منهُ الامراء الشهابيون التقاهم الامير بشير على الى نهر الصفا ومعهُ الميرة واقام عندهم يومين الاَّ ان في هذه الرواية مظنة سهو لان التتر المغول اقتحموا بر الشام تحت امرة ملكهم هولاكو في اواخر سنة ٦٥٧ هجرية على ما رواهُ ابو الفدا في تاريخهِ وهو ثقةٌ لا ينازع في الاخبار عن عصرهِ ومصرهِ فتمت لهولاكو الغلبة على الشام في مدى تسعة شهور من سنة ٦٥٨ ثم انكسروا في رمضان من تلك السنة وفي محرم سنة ٦٥٩ وضعفت شوكتهم في البلاد حتى اضطروا الى مبارحتها ولكنهم عاودوها في السنة التالية وبلغوا حمصًا وهنالك كسرتهم جيوش الملك المنصور قلاوون وردتهم على اعقابهم فلبثوا الى سنة ٦٩٩ قاعدين عن الغارة حتى شنوها في تلك السنة فلقيهم المسلمون عند حمص وواقعوهم فانكسر المسلمون واستولى المغول على دمشق والقدس حتى غزة ولكنهم لم يلبثوا طويلاً بل نكصوا راجعين

فاذا اعتبرنا تاريخ غشيانهم وادي التيم على رواية اخبار الاعيان يكون ذلك سنة ٦٨٦ هـ لانها تعادل سنة ١٢٨٧ التي ذكرت هنالك وفي تلك السنة لم يكن للمغول حرب في بر الشام لما مرَّ بنا من ارتدادهم من سنة ٦٨٠ الى سنة ٦٩٩ ولا نحسب الحادثة واقعةً في الغارة الثانية سنة ٦٩٩ لان العلاَّمة البطرك الدويهي يذكر في حوادث سنة ٦٨٣ وفاة الامير قرقماز الشهابي ويقول ان في عهدهِ كان دخول المغول الى وادي التيم ووقوع هذه الحرب

ولا خفاء ان المغول عاثوا في بلاد التيم فسادًا واسرفوا في القتل والنهب والحريق حتى اضطر كثيرون من التيامنة ان يهجروا بلادهم الى بلاد الشوف فازدادت بهم عمارةً ونجاحًا

ومما روى الكولونل تشرشل في تاريخ لبنان (جزء ١ صفحة ٢٨٤ و٢٨٥) ان الملك الاشرف لما قضى لبانتهُ من طرد الافرنج عن سوريا اهتمَّ بكبت الدروز لمخالفتهم السُّنة فاوعز الى نائبهِ في دمشق اقوش الافرم ان يأمرهم ببناء المساجد في جبالهم فابوا ذلك فزحف عليهم باربعين الفًا ولقوهُ بعشرة آلاف تحت امرة احد عشر اميرًا من تنوخ ومعن فانقهروا عند عين صوفر ولكنهم انهزموا الى انطلياس بجوار بيروت واختبأوا في مغارةٍ لم تسترهم عن بحث الظافرين فسألوهم التسليم ولمَّا ابوهُ سدوا عليهم باب المغارة حتى ماتوا فانكسرت بذلك شوكة الدروز .

قلتُ لقد اخطأ المؤرخ في اسم الملك لان الملك الاشرف هو صلاح الدين خليل بن قلاوون وانما توفق لقطع دابر الافرنج من سوريا سنة ٦٩٠هـ وقتل سنة ٦٩٣ فتولى السلطنة اخوهُ الملك الناصر وعزل عنها سنة ٦٨٦ ثم عاد اليها سنة ٦٩٨ وحينئذٍ ولّى جمال الدين اقوش الافرم نيابة الشام وفي سنة ٧٠٥ سار هذا النائب على ما قال ابو الفداء بعسكر دمشق الى جبال الظنيين وكانوا عصاةً مارقين من الدين الخ فكبتهم قال والبلاد جبال شاهقة بين

طرابلس ودمشق. وذكر صالح بن يحيى في تاريخ بيروت ان اقوش الافرم اغار بخمسين الفاً على كسروان فلا ندري من اي المصادر اخذ تشرشل سيما وان مؤرخي التنوخيين والمعنيين لم يذكروا في تلك الاونة مقتل الامراء

وكرّت الايام والقوم على حالهم المألوف الاّ ان التاريخ الذي اتصل الينا لم يحوِ من اخبارهم شيئاً يُذكر وكأني بهم ظلوا على ما عُهد فيهم من التدرب على الضرب والطعن وممارسة القتال سحابة زمانهم والاّ فلو مرّت بهم السنون وهم ساكنون الى الحراثة دائبون على السلام لانتفت من بينهم الاميال الحربية وخلدوا الى الراحة والحال انهم ظهروا في اوائل القرن الخامس عشر بما عهد فيهم من القوة ورباطة الجأش اعتبر ذلك بما رُوي من ان في سنة ١٤١٣ المعادلة لسنة ٨١٦ هـ جاءت سفن الافرنج واحسبها من الجنويين او البنادقة الذين كان لهم القدح المعلّى في البحر بتلك الاونة واقتربوا من الدامور فوق صيداء وخرج منها رجال اشداء شرعوا يعيثون في البلاد قتلاً واسراً فعارضهم بعض امراء الجوار الذين كانوا يتولون الدرك او يقصدون الذود عن انفسهم فلم يقووا عليهم فنهض الملك المؤيد المحمودي الخاصكي من دمشق لقتالهم فالتقاهم الى البقاع الامير سيف الدين ارسلان واضافهُ في الشويفات ثلاثة ايام ولما انقضت سار فانضم اليهِ الامير قاسم الشهابي اما الامير احمد بن عثمان المعني فانهُ التقاهُ في اطراف بلادهِ وحمل اليهِ الزاد والذخيرة وصحبهُ في زحفهِ فابلى جميعهم في الفرنج بلاءً حسناً حتى ردوهم على الاعقاب

ومما يذكر ان صاحب اخبار الاعيان لم يذكر لهذه الحادثة زمناً وناهيك بهِ انهُ ذكر اسم الملك "داود الجركسي" فراجعنا كل ما لدينا من التواريخ ولم نجد بين ملوك الدولة الجركسية من يسمى داود ولكنا رأينا ان الخليفة المعتضد بالله كان يسمى داود وانما لم يكن جركسيا ولم يكن هو الزاحف على الدامور واغرب من هذا ان الخواجا يوسف كتفاكو الذي كتب تاريخ معن في الجورنال ازياتيك Journal Asiatique. Mars, Avril 1864 تبع صاحب اخبار الاعيان حتى في هذا الخطاء فاورد اسم الملك داود من غير تثبت

وليس في ما مرّ بنا من اخبار المعنيين ونهوضهم للترحاب بالملك المؤيد والسير في جيشهِ او غير ذلك ما يخالف مبدأهم في الاستقلال والمحافظة عليهِ لان النجدة من خلالهم وانهم ليؤدون الطاعة ما لم تؤخذ بمساس شيء من حقوق استقلالهم فانهم كانوا حراصاً عليهِ حتى انهُ ليظن [1] انهم كانوا يعاملون دول المماليك المصرية بظاهر الطاعة والمباهرة ولكنهم لا

(1) The New American Cyclo. (New York, 1868) Vol. VI page 633.

يقعدون عن حربها اذا مست الحاجة وليس هذا بعيداً لان من كان في مثل موضعهم لا يعتمد الاَّ على قواهُ ويذود عن حوضهِ بملء قدرتهِ تارةً بالقوة وطوراً بالخدعة والاستكانة ولقد روى المؤرخون ما يستفاد منهُ وقوع النفرة فالحرب بين نائب السلطنة الجركسية في الشام والمعنيين قال العلامة الدويهي ان في سنة ١٥٠٥ (٩١١ هجرية) جهز نائب الشام العساكر مع جوان بك الافرنجي الدوادار الى البقاع فقتل الدوادار وقتل معهُ ثلثمائة نفر ثم جمع النائب العساكر وقصد التوجه بنفسهِ الى البقاع فمات قبل خروجهِ من دمشق ودخل على نيابة دمشق سيباي الاشرفي وبعد قليل قبض على الامير فخر الدين عثمان بن معن من اعمال صيداء اه

فالمستفاد من هذه الرواية وقوع الشحناء بين النيابة والامير وانها ادت الى الحرب فالانكسار في البقاع كما نقل الاستاذ الشرتوني عن الغرر الحسان الاَّ انهُ لم يذكر سبب العداء ولا كيف قبض على الامير فخر الدين وغاية ما قيل ان النائب سيباي اعتقلهُ مدة ثم اطلقهُ واعادهُ الى بلادهِ مكرماً

وكأن اعتقال الامير قد حاك في نفسهِ فابقى في صدرهِ الرغبة في الثأر من القوم الذين اهانوهُ حتى اذا وقعت الوحشة بين ساكن الجنان السلطان سليم الفاتح وبين الملك الاشرف قانصوه صاحب مصر والشام كتب نائب السلطنة في الشام الى امراء البلاد وفي جملتهم الامير فخر الدين عثمان يستنزهم الى القتال وكانت النيابة لم تزل لسيباي الاشرفي وقيل انها صارت يومئذٍ لجان برد الغزالي ولكن الارجح ان الغزالي كان يومئذٍ اميراً للجيش فجمع الامير رجالهُ وانضم الى جيش الغزالي وفيهِ خير بك نائب السلطنة في حلب واسير جيوشها ونواب دمشق وطرابلس وصفد وغيرهم وبينهم السلطان الغوري بنفسهِ وحاشيتهِ وكان الغزالي يتودد لامراء لبنان وقد اتفق مع خير بك على الانحياز الى الجيوش العثمانية فخابر السلطان سليماً واتعدوا على انهما اذا صدقا وفاز بالفتح يولي احدهما مصراً والآخر الشام ثم مال الغزالي الى الامراء وخابرهم فوافقهُ على ذلك الامير فخر الدين المعني والامير منصور الشهابي والامير جمال الدين الارسلاني والامير عساف التركماني حتى اذا تصاف الجيشان في مرج دابق عند حلب سنة ١٥١٦ (١) شعر الغوري بخيانة رجالهِ فامر الغزالي وخير بك ان يتقدما الى القتال ليجول

(١) وليس سنة ١٥١٥ كما ذكر العلامة الدويهي وصاحب أخبار الاعيان ومن تابعهما والدليل على ان الموقعة كانت سنة ١٥١٦ ما ورد في La Turque, par Jouanin et Vau Gaver, chap. XI, page 113.
وكذلك في Creasy; Hist. of the Ott. Turks, chap. XIII page 113.
وما ذكر في الجزء العاشر من دائرة المعارف وتاريخ مصر المالكي (خط) وتحفة الناظرين للشرقاوي وتاريخ الاسحاقي والجزء الاول من تاريخ جودت باشا وغيرها

حنفهما وكان موقف خير بك في الميمنة والغزالي في الميسرة فلما اشتبك القتال فرّ القائدان بمعن معهما الى السلطان سليم وظلّ الغوري وحدهُ فأُسقط في يدهِ ورأى ان نواب دمشق وطرابلس وصفد قد قُتلوا وان العسكر ولّى منهزماً فأُغمي عليهِ وهو شيخ يناهز الثمانين وسقط عن الجواد ومات (في ٢٤ آب سنة ١٥١٦ الموافق ٢٥ رجب ٩٢٢) فاستولى السلطان على حلب وحماه وحمص والشام وما بينها وألحق بالمماليك الى غزة ومصر وحارب طومان باي الذي اختاروهُ سلطاناً فغلبهُ واستولى على مصر واقام فيها اياماً حتى رتب شؤونها وعاد الى سوريا سنة ١٥١٧ فرتبها وانالهُ المؤرخون لقب "فاتح ممالك العرب" وهي اذا حسبت بحساب الجمل بلغت ٩٢٣ ووفى بوعدهِ اذ ولّى خير بك على الديار المصرية والغزالي على بر الشام . ولما عاد من مصر الى الشام كتب الى امراء لبنان فحضر اليهِ الامير قرقماز المعني والاميران جمال الدين الارسلاني وعساف التركماني

فاما قرقماز فقد آثر العلاّمة الدويهي انهُ ابن يونس وليس في ما لدينا من التواريخ ذكرٌ لولايتهِ او لشأنهِ الاّ انّا نظنهُ من المقربين لدى نسيبهِ الامير فخر الدين الاول الذي تولّى الامارة عقيب عمهِ الامير يوسف سنة ١٤٧١ ولذلك بعث بهِ لدى السلطان الاّ ان للامير فخر الدين ابناً اسمهُ قرقماز فمن الاولى ان يكون هو الذي انفذهُ ابوهُ امتثالاً لامر السلطان . يؤيد هذا ما رُوي من ان المولى ولاّهُ الشوف كما ولّى الامير جمال الدين على الغرب والامير عسّافاً على كسروان لاسيما وانّا على ثقةٍ من ان الولاية لم تخرج من بيت فخر الدين لانهُ كان قد نال الحظوة لدى السلطان سليم حتى انهُ لما مثل بين يديهِ في جملة الامراء الذين انحازوا الى عسكرهِ قبّل الارض بين يدي السلطان ودعا لهُ قائلاً . اللهمّ ادم من اخترتهُ للملك وجعلتهُ خليفة عهدك وسلطتهُ على عبادك وارضك وقلدتهُ سنتك وفرضك ناصر الشريعة النيرة الغراء وقائد الامة الطاهرة الظاهرة سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين الامام العادل والزكي الفاضل الذي بيدهِ ازمة الامر بادنشاهُ ادام الله بقاه وفي العز الدائم ابقاه وخلّد في الدنيا نعماه ورفع الى القيامة طالع سعدهِ وبلغهُ مأمولهُ وقصدهُ اللهمّ امين . فلما انتهى الامير فخر الدين من ذلك الدعاء قرّبهُ السلطان اليهِ واحبهُ وقال مثل هذا حقيق بان يُدعى سلطان البر وكان كل من تولّى الاحكام في ذلك العصر يسمى سلطاناً اه [1]

(١) هذا ما نقله الاستاذ الشرتوني عن الغرر الحسان ويغلب على الظن ان ذلك كان قبيل الزحف على مصر اي عقيب الانتصار على الغوري غير ان تشرشل يقول في تاريخ لبنان (جزء ٢ صحيفة ٢٢٧) ان فخر الدين لما مثل في حضرة السلطان سليم في دمشق بعد رجوعهِ من مصر نال الحظوة لديه فخلع عليهِ وجعلهُ سنجقاً على لبنان

ولا ندري لما لم يُذكر الامير منصور الشهابي صاحب وادي التيم في جملة الامراء الذين مثلوا بين يدي السلطان سليم ونالوا الولاية من نعمهِ مع انهُ كان في جملة المنجازين الى جيشهِ فكأن المؤرخ لم يفصح باسمهِ بل عناهُ في جملة عظماء البلاد الذين عبَّر عن مثولهم لدى المولى بكلمة وغيرهم . اما امراء آل تنوخ فانهم لم ينالوا الحظوة لانهم كانوا من المتحيزين للملوك الجراكسة وقد كانت لهم في دولتهم العزة والمكانة فلما ادال الله منهم بالسلطنة العثمانية سقط التنوخيون من سدرة عزهم وبسطتهم وارتفع الى العلياء امراء آل معن. ولعلَّ هذا كان مغزى قول صاحب اخبار الاعيان ان بالامير فخر الدين بن عثمان غابت شمس الامارة التنوخية واشرقت شمس الامارة المعنية والاَّ فلا معنى لهذه العبارة لان فخر الدين هذا لم يكن اشهر بني معن كما قال لان اشهرهم هو فخر الدين الثاني الذي سنذكرهُ ولم يكن بفخر الدين الاول انقراض التنوخيين بل نقلَّص شيءٌ من نفوذهم لانهم عادوا فاحرزوا رضا رجال الدولة العلية حتى اننا قرأنا في اخبار الاعيان ان السلطان سليمًا امر للامير شرف الدين يحيى التنوخي بالعلامة على مناشيرهِ حين جاءهُ الى دمشق ولم تغرب شمس امارتهم الا سنة ١٦٣٣ والله اعلم

وكأن الفاتح العظيم السلطان سليمًا لم يرضَ بتغيير الاحوال الداخلية في مصر وسوريا تغييرًا كليًّا بل اكتفى بسحق قوة المماليك الجراكسة وبعد ان رتَّب مصرًا على ما حسبهُ ادنى الى طاعتهِ واتى سوريا اقرَّ فيها بعض الامراء على اقطاعاتهم كما مرَّ ونظَّم سائر بلدانها تنظيمًا اختلف فيهِ المؤرخون فقد قال قولناي ان السلطان سليمًا قسم سوريا الى خمس ولايات جعل على كلٍ منها عاملاً بلقب باشا وقال ان هذه الولايات هي حلب ودمشق وطرابلس وصيدا وفلسطين وان ولاية صيداء هي التي دعيت بعد ذلك ولاية عكاء. وقال جول داقيد في تاريخ سوريا ان السلطان قسمها الى اربع ولايات وانها حلب وطرابلس وعكاء ودمشق ولم يذكر فلسطين والحال ان كلتا الروايتين مغلوط فيها فان من انعم النظر في تاريخ البلاد السورية قبل الفتح العثماني وبعدهُ يرى ان في زمن المماليك كانت نوابهم في كل بلدٍ من القطر السوري الاَّ ان اهمهم نائبا دمشق وحلب فلما وقع الفتح ولَّى السلطان سليم على حلب قرهجه باشا وعلى حماه قاسم باشا وعلى حمص احتمان اوغلو وعلى دمشق جان برد الغزالي وعلى طرابلس ابن ادريس البدليسي وعلى بيروت وصيداء ونواحيها محمد بك قورقماز اوغلو. الاَّ ان هذا لم يدم طويلاً بل رأينا بعد الفتح انتظام الولايات كحلب والشام وغزة واما طرابلس فانتظمت ولايةً سنة ١٥٧٩

من يافا الى طرابلس فكانت هذه النعمة مصدرًا لعزة المعنيين ورسوخ قدمهم في امارة لبنان و باعتلائهم تقاص ظلّ الامارة التنوخية

حين ارادت الدولة ان تكبت الامراء آل عساف التركمان فجعلت ايالة طرابلس من وادي قنديل وراء اللاذقية الى المعاملتين عند جونية واما صيداء فقد لبثت تابعةً ولاية الشام حتى اواسط القرن السابع عشر حين ارادت الدولة ان تجعل الوزير قريباً من الدروز ليراقب حركاتهم وحسبنا دليلاً ما سنذكرهُ من احالة سنجقية صيداء لآل معن او غيرٍ واحدٍ من احزابهم

واما الضرائب فقد جعلها السلطان قسمين المال الاميري والخراج والاول على الاملاك والثاني على النصارى ولكن هذا الترتيب لم يشمل كل سوريًا بل بقيت اقطاعات الامراء كانها معفاة من المال ومن الطاعة للوزراء يُستدل على هذا ليس فقط بنص بعض مؤرخي الفرنجة بل بما نُقل من ان السلطان سليمًا ولّى كسروان للامير عساف التركماني وفرض عليهِ مالاً ولم يُذكر ما ضرب على غيرهِ من الامراء الذين اجتمعوا لدى المولى واقرّهم على اقطاعاتهم ولا غرابة في استلام كسروان لانها ظلّت ملحقةً بايالة دمشق حتى ضُمت الى طرابلس

وفي خلال ذلك نبذ الامير ناصر الدين محمد بن الحنش صاحب صيداء والبقاعين طاعة السلطان فزحف عليهِ جان بردغ الغزالي والي دمشق فالتقاهُ الامير جمال الدين الارسلاني وسار معهُ لفتح صيداء فلما اخذاها فرّ ابن الحنش منها وعاد الظافران بها فدخلا الشوف لان الامراء آل معن اظهروا الميل لابن الحنش. ولسنا على يقينٍ من سبب هذا الانحراف عن جادة الولاء ولعلهُ كان لما وقر في نفوس المعنيين وغيرهم من امراء لبنان من الرغبة في الاستقلال عن كل سلطةٍ ولذلك قعدوا عن نجدة عسكر السلطان او انهم تظاهروا بما آخذهم فيهِ حتى استحقوا التأديب فجاءتهم عساكر الدولة وقبضت من المعنيين على الامراء زين الدين وقرقماز وعلم الدين سليمان وعلى الامير شرف الدين يحيى التنوخي[٣] وكان الامير فخر الدين توارى عن العيان فلم يقبض الغزالي عليهِ بل اكتفى بعزلهِ من الولاية وتفويضها للامير جمال الدين ارسلان جزاء اخلاصهِ وطاعتهِ فكان ذلك منشأ العداء بين الاميرين فخر الدين المعني وجمال الدين الارسلاني وسبباً لخروج فخر الدين بآلهِ من الحزب اليمني وصيرورتهم قيسيين

ولما قبض الغزالي على الامراء اخذهم معهُ الى صيداء ثم ارسلهم منها بحرًا الى صور ومنها بعثهم الى قلعة صفد فقلعة دمشق وكان السلطان سليم لم يزل في دمشق فجاءهُ اليها الامير فخر الدين يبرر نفسهُ وينفيهِ من وصمة العقوق فارتضى السلطان بذلك واقرّهُ على ولايتهِ ولكنهُ

(٣) يذكر اخبار الاعيان هؤلاء الامراء زين الدين وقرقماز وعلم الدين سليمان من بني معن وذلك في اكثر من موضع واحد ولكننا نرتاب في صحة نسبهم ونظن زين الدين وعلم الدين سليمان من التنوخيين بدليل ما ورد عن وفاة زين الدين سنة ١٥١٩ وعن نسب علم الدين سليمان والله اعلم

لم يطلق سراح المعتقلين بل حملهم معهُ الى حلب واودعهم قلعتها حتى جاءهُ الخبر بقتل ابن الحنش فاطلقهم

وكل هذا يدل على ان السلطان لم يكن راغبًا يومئذٍ في مغاضبة القوم لئلاَّ يشغبوا عليهِ وهو على وشك الرحلة عن بلادهم ولم يكن عهدهُ بالفتوح قديمًا ولا تمكنت منهم ربط الطاعة والولاء والاَّ لما اكتفى من فخر الدين بالكلام المزوَّق ولا ارتضى بتسريح المعتقلين الذين ساء فيهم ظنهُ

لكن هذا الحلم زاد القوم يقينًا في منفعتهم واعقبهُ تشاغل السلطان عن سوريا جملةً حتى وافتهُ المنية وتبوأ الاريكة ابنهُ السلطان سليمان فلم يحسب لمثل هذه الشرادم حسابًا بل حدثتهُ نفسهُ الابية بغزوات اهمَّ خطرًا واعظم أثرًا فتمادى المعنيون في منعتهم حتى صاروا لا يعبأون بولاة الدولة الذين يجاورونهم وكانت بلادهم في غضون ذلك الامد تزداد عمارةً بمن يلجأ اليها من اهل الجوار

وليس خفيًا ان الذين كانوا يتجردون للقتال عند الحاجة لا يقاسون بامثالهم من اهل الحضارة في هذا العصر بل انهُ كان في عرفهم تجرُّد الرجال القادرين جميعهم الى الحرب واذا اعتبرنا شؤون تلك الايام وان كل رجلٍ يتدجج بالسلاح دائمًا حتى اذا ذهب للحراثة والاعمال اليومية تبين لنا كثرة رجال الحرب الذين يجتمعون تحت راية المعنيين عند مسيس الحاجة

ولا خفاء ان من عوائد تلك الايام ان يكون للولاة والحكام ملء السلطة والحرية في اعمالهم بحيث كانوا يعملون غير معارضين فترام سواء كانوا من عمال الدولة المقيدين باوامرها او من الذين يحكمون بسلطتهم المخصوصة ولا قيد لهم الاَّ ظاهر الطاعة كلهم جُمَع يحاربون ويسالمون لاغراضٍ ذاتية لا ترجع الى مصلحة الدولة الحاكمة فيهم بل تتجه حروبهم الى بعضهم ويتحزب الواحد منهم ضد الآخر لغير داعيةٍ الاَّ استنجاد احد الفريقين بهِ. وعلى هذا كان المعنيون يُستصرَخون مرارًا فيجردون عسكرهم ويقاتلون من استنفروا لقتالهِ ألاَ تراهم كيف انجدوا آل سيف يومَ وقع الخلاف بينهم وبين محمد آغا شعيب حاكم طرابلس سنة ١٥٢٨. واما تحفزهم لمناوأة الدولة سحابة زمانها فظاهر من تكرار نهضتهم عليها فقد ورد في تاريخ الدولة العلية العثمانية لجوانين ان الدروز انجدوا جان برد الغزالي لما شق عصا الطاعة عقيب وفاة السلطان سليم الفاتح فكأن خلفهُ السلطان سليمان اكتفى بما نال من الظفر بالعاصي وركود الزعازع بعد اهتياجها ولم يجفل بالذين انجدوهُ

وستأتي تتمة الكلام على الامراء آل معن في الجزء التالي جرجي يني